وقفة مع تجربة في الحوار الإسلاميّ - المسيحيّ

أ.د. محمّد منير سعد الدين*

أصبح الحوار مصطلحًا مهمًّا في العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة، وهو جوهر الحياة البشريّة حين يتمّ بين ذوي النوايا الطيّبة. إنّه تقليد حضاريّ، وفعلٌ ثقافيّ رفيع المستوى، ومجال للتعارف والتفاهم، وتحقيق العدالة والرأفة والتسامح في التعامل.

إذا استعرضنا تاريخ الحوار الإسلاميّ المسيحيّ منذ مطلع القرن العشرين إلى وقتنا الحاضر، نرى أنّ هذا الحوار ظهر في أشكال متعدّدة هي:

١ - لقاءات الحوار الإسلاميّ المسيحيّ الفرديّة بين المتخصّصين والعلماء، حيث دار هذا الحوار مع مستشرقين، ورهبان وقساوسة مسيحيّين من جهة، وعلماء ومتخصّصين مسلمين من جهة ثانية، كما هو حال حوارات الشيخ طاهر الجزائريّ مع المستشرقين، وحوارات أحمد ديدات مع القساوسة.

٢ - مؤتمرات وندوات وملتقيات الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، وهي أكثر ما سجّله تاريخ القرن العشرين على مستوى الحوارات الجماعيّة بين المسلمين والمسيحيّين، ونقصد بالمؤتمرات والندوات والملتقيات هذه أنّها تلك التي «تجري بين المسلمين والمسيحيّين لبحث قضيّة أو

(*) كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة. منسّق لقاء الكلّيّات والمعاهد الدينيّة الجامعيّة في لبنان.

عدّة قضايا للدراسة والحوار، حيث تكون الجهة المنظّمة لهذه اللقاءات إمّا حكوماتُ دول، أو وزاراتٌ تابعة لها، أو تجمّعات دينيّة كالمؤسّسات والهيئات والروابط أو جمعيّات الدعوة الإسلاميّة».

ومن خلال استعراضي لما يقرب من أربعين مؤتمرًا ولقاءً وندوة، تبيّن لي أنّ القسم الأكبر منها كان بتنظيم وإشراف ودعوة جهات مسيحيّة.

٣- **الرسائل المتبادلة بين علماء المسلمين ورجال الدين المسيحيّ**، وأذكر على سبيل المثال: رسالة الشيخ أبو الأعلى المودوديّ جوابًا على رسالة البابا بولس السادس، وكذلك رسالة الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ردًّا على رسالة د. ميجيل دي إيبالسا سكرتير جمعيّة الصداقة الإسلاميّة المسيحيّة في إسبانيا.

أمّا موضوعات الحوار الإسلاميّ المسيحيّ فكانت تدور حول:

أ - الديانة المسيحيّة، وكلّ ما يتعلّق بعقيدتها والنبيّ عيسى عليه السلام.

ب - الديانة الإسلاميّة، وكلّ ما يتعلّق بعقيدتها وأحكامها ونبيّها محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

ج - بحث نقاط التلاقي بين أتباع الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، وبحث سبل التعايش المشترك بينهما.

د - دراسة أوضاع البشريّة، والمشاكل التي تواجهها وبحث سبل علاجها، من إيقاف الحروب، وفضّ المنازعات، وتقديم المساعدات للمحتاجين، والتعاون في شتّى مجالات الحياة الإنسانيّة.

ومن استعراض الموضوعات الحواريّة التي قدّمت نرى أنّ ما يتعلّق بالديانة المسيحيّة أخذ المساحة الأوسع في هذا الحوار، وذلك لأهمّيّتها ولكونها تتعلّق بقضيّة العقيدة، وهي أهمّ ما يشغل العقل الإنسانيّ عمومًا، لأنّ أوّل لقاء يتمّ بين أتباع الديانات يكون لبحث القضايا المتعلّقة بعقيدة كلّ منهم، ولذلك كانت العقيدة المسيحيّة محورًا كبيرًا يلتقي المسلمون والمسيحيّون لدرسه.

أمّا الديانة الإسلاميّة وموضوعاتها فقد أخذت المرتبة الثانية في مساحتها بعد الموضوعات المتعلّقة بالديانة المسيحيّة.

وهناك موضوع التعايش السلميّ والعيش المشترك الذي أخذ حيّزًا من الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، فهو موضوع قديم حديث، إلّا أنّه في القرن العشرين أخذ مفهومُه دلالاتٍ جديدة، لم تكن موجودة سابقًا في علاقات الأديان وأتباعها، حيث اتّجه المفهوم الجديد للتعايش السلميّ نحو علاقات الدول والشعوب بعضها مع بعض، وذلك ضمن نظام وقوانين هيئة الأمم المتّحدة، إذ وُضعت القوانين الدوليّة داخل هذه المنظّمة وصيغت طبيعة العلاقات بين الدول والشعوب.

لقد تناول موضوع التعايش السلميّ، بالمفهوم الحديث، عدّة قضايا، أهمُّها:

١ - السلام العالميّ.

٢ - حفظ البشريّة من أخطار الحروب المدمِّرة.

٣ - التعاون على إنهاء الصراعات الطائفيّة والعرقيّة والإقليميّة.

٤ - التعاون على المحافظة على البيئة السليمة في الكرة الأرضيّة.

ولقد عُقدت مؤتمرات وندوات في هذا المجال، وطرحت هذه الأمور من وجهة النظر الإسلاميّة والمسيحيّة، ولكنّ الحوار في هذا المجال طَرح تساؤلات متعدّدة، منها:

- مَن يهدّد السلام العالميّ؟
- مَن يثير النعرات الطائفيّة والعرقيّة والإقليميّة؟
- مَن يعلن الحروب المدمّرة؟
- مَن يُفسد البيئة؟
- مَن الذي أنفق على التسلّح في عام ١٩٨٦م، مبلغ (٧٥٠) مليار دولار أمريكيّ، في حين مات في ذلك العام من الناس ما يُقدَّر بـ(٨٠) مليون إنسان بسبب الجوع وسوء التغذية؟

ولعلّ هذا كان له انعكاساته السلبيّة على الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، خصوصًا وأنّ مَن يقوم بهذه الأعمال معروفة هويّته ودوره

وصورته في ذهن الآخر.

ويبدو أنّ مفهوم التعايش الإسلاميّ المسيحيّ ينبغي أن يتّسع للقضاء على أسباب التوتّر واضطراب حبل الأمن والسلام وعدم الاستقرار، ويشمل أيضًا العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والانحلال الخلقيّ، وتفكّك الأسرة، واستغلال الأطفال، ومقاومة كلّ الآفات والأوبئة التي تهدّد سلامة كيان الفرد والجماعة وتُضرّ بالحياة الإنسانيّة.

أمّا المواقف من الحوار الإسلاميّ المسيحيّ، فلا شكّ أنّها تباينت عند كلّ من الطرفين على حدّ سواء، حيث انقسمت هذه المواقف بين مؤيّد للحوار داعم له، وبين معارض له، يرفض استمراريّته، ويطالب بالحذر منه ومن نتائجه التي قد يوصل إليها.

لقد تردّد مسيحيّون ومسلمون في المشاركة وفي اقتحام ساحة الحوار، وكان التردّد مبرّرًا في بعض الأحيان، فمنهم مَن اعتقد أنّ الحوار هو شكل من أشكال التوفيق الدينيّ بين الديانتين، ومنهم مَن اعتبره وسيلة للدعوة أو التبشير، بل إنّ بعضهم رأى فيه نفاقًا أو زينة مجرّدة تختفي تحتها نوايا سياسيّة سيّئة.

ولكن رغم تباين المواقف، فإنّنا نستطيع القول إنّ هناك جمهورًا كبيرًا يؤيّد هذا الحوار واللقاء. ويبدو أنّ بعض المعارضين وخصوصًا من المسلمين يتّخذون موقفًا سلبيًّا للارتباط ذهنيًّا وتاريخيًّا وواقعيًّا بين الاستعمار الغربيّ والديانة المسيحيّة كما يُصرّحون.

وانطلاقًا من خبرات الحوارات السابقة، ومن العمليّات التقييميّة، ومراجعة واستذكار الصِيغ والأساليب والممارسات السابقة التي اعتمدت على تحديد موضوعاتها الحيويّة، وحشد الطاقات من أجل التصدّي للأخطار التي تواجه مجتمعاتنا، كانت إحدى السبل هي الانطلاق نحو الجامعة وكلّيّاتها ومعاهدها لتخرج من عزلتها، من أبراجها العاجيّة، ولتتوجّه نحو مجتمعها وتعمل على المساعدة في حلّ مشاكله.

إنّ الخروج من هذه العزلة يحتّمه ما يواجهه الإنسان اللبنانيّ من مشاكل، وكذلك المجتمعات الأخرى، حيث هناك مناخات مفعمة

بالمخاوف، ومشاعر العنصريّة والكراهية، ونزعات الهيمنة وإهدار كرامة الإنسان، هذا الإنسان الذي كرّمه خالقُه وجعله خليفته في الأرض، قال تعالى ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ [سورة البقرة، آية ٣٠] لكنّ هذا الإنسان تعرَّض للظلم والتعسّف والاستغلال، وتفشّت في المجتمعات اتّجاهات ماديّة، وانصرافٌ عن الدين، وفساد منتشر في جوانب متعدّدة في المجتمعات، كلّ هذا يحتّم علينا، كمؤسّسات تربويّة جامعيّة دينيّة إسلاميّة ومسيحيّة، أن نعزّز التفاهم فيما بيننا، ونقدّم إلى هذه البشريّة ما تحويه الديانتان من قِيَم دينيّة تُسعد البشريّة، وتبني شخصيّة الإنسان المتوازن القادر على مواجهة ضغوط العصر المتزايدة، وتتّضح ضرورة لقاء المؤمنين بهذه القِيَم لإزالة سوء الفهم بين أتباع الديانتين، وتعزيز تعارفهم، وُصولًا إلى تعاونهم على البِرّ والتقوى، ومواجهة الأخطار التي تهدّد البشريّة.

من هنا وأمام كلّ هذا، كانت مبادرة كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة، وهي المبادرة الأولى من نوعها على الصعيد اللبنانيّ منذ عهد الاستقلال، بدعوة الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة في لبنان إلى التداول والتحاور حول مواجهة المشكلات والتحدّيات التي تعترض المجتمع، ولتنزل هذه المؤسّسات التربويّة الجامعيّة من أبراجها العاجيّة، لتعايش مشاكل المجتمع، وتُسهم في إعداد أفراده على أساس تكامليّ للطبيعة الإنسانيّة، من خلال الاهتمام بحاجات الإنسان وجوانبه الجسميّة والعقليّة والروحيّة.

لبّت الدعوة اثنتا عشرة كلّيّة ومعهدًا جامعيًّا دينيًّا، وكان اللقاء الأوّل فيما بينها يوم الثلاثاء الموافق ١٦/١٢/١٩٩٧م[1].

إستمرّت الاجتماعات بين ممثّلي هذه الكلّيّات والمعاهد في مراكزها بشكل دوريّ وفاعل ونشط.

(١) وهذه أسماء المؤسّسات المشاركة (بالترتيب الأبجديّ): كلّيّة الاجتهاد والعلوم الإسلاميّة في الجامعة الإسلاميّة في لبنان، كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة، كلّيّة الشرق الأوسط، كلّيّة العلوم اللّاهوتيّة للدراسات الرعائيّة في=

وهنا لا بدّ لي من الإشارة إلى أخلاقيّات ومناخات الحوار في اللقاءات المستمرّة لهذه الكلّيّات والمعاهد، والتي شارك فيها الجميع بفاعليّة وجهد كبيرين، وقام حوارها على الاحترام المتبادل، والصدق، والصراحة، والوضوح، والمحبّة، والثقة، والصبر، والدقّة، واللطف.

إنطلقنا من جوامع مشتركة بين الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة، ومن دعوة إلى مواجهة التحدّيات بالوعي المتزايد والتكاتف والتعاون. وكنّا نتبادل الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات التي تزيد من معرفة كلّ فريق بالآخر بطريقة موضوعيّة. كان هناك تلاقٍ واختلاف، ولم يفسد الودّ الاختلافُ في قضيّة، واحتفظ كلّ طرف بمعتقداته وثوابته، وسعينا بكلّ الوسائل ليعرف كلٌّ منّا الآخر على حقيقته، لا كما هي الصورة النمطيّة الذهنيّة المشوّهة عن الآخر والقائمة على أحكام مسبقة. لم يكن هناك انطواء كلٍّ على جماعته ومصالحه، بل ساد اللقاء روح المشاركة، والتعايش، والتعاون، والالتقاء على جوامع مشتركة، والحرص على الانفتاح والتعلّم من الآخر على جميع الأصعدة.

ولقد فتحت هذه اللقاءات أبوابًا للصداقات فيما بيننا، وحقّقنا تفهّمًا متبادلًا، واكتشفنا أخوة لنا في الإيمان، وتشاركنا في المسرّات والآلام.

كنّا نتحاور بالتي هي الأحسن، يقول تعالى ﴿ولا تُجادِلُوا أهلَ الكِتاب إلّا بالتي هي أحْسَن﴾ [سورة العنكبوت، آية ٤٦].

وهنا أقف، في هذه الآية الكريمة، على (أهل الكتاب) و(بالتي هي أحسن)، فالقرآن الكريم أشار، في كثير من آياته، إلى أصحاب الجنّة، وأصحاب النار، وأصحاب الكهف، ولم يقل أصحاب الكتاب، بل قال

=الجامعة الأنطونيّة، كلّيّة اللاهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس، بالكسليك، كلّيّة اللاهوت للشرق الأدنى، مركز الدراسات الإسلاميّة - المسيحيّة - في جامعة البلمند، معهد الدراسات الإسلاميّة - المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف، معهد طرابلس الجامعيّ للدراسات الإسلاميّة، المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة في جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، المعهد العالي للعلوم الدينيّة في جامعة القدّيس يوسف، معهد القدّيس بولس للفلسفة واللاهوت بحريصا.

أهل الكتاب، فالأهل الزوج والزوجة والأولاد... إلخ، أي الأسرة، فنحن، مسلمون ومسيحيّون، أسرة واحدة يجمعنا الإيمان بالله، والوحي الإلهيّ، والكتاب. أمّا الحوار بالتي هي أحسن، فهو أن نختار الأحسن والأفضل في التعامل، الأحسن في الطريقة، في المنهج، في الأسلوب، في اختيار العبارات، إنّه التعبير بالأسلوب الهادئ السلميّ، حيث يُوصِل كلّ هذا إلى نتائج جيّدة، بحيث يتحوّل الجميع إلى أصدقاء.

كان لقاؤنا وتقاربنا على الكلمة السواء، كلمة الحقّ والعدل التي تسوّي بين الجميع، يقول سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يا أهلَ الكِتاب تَعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألّا نعبُد إلّا الله﴾ [سورة آل عمران، آية ٦٤]

وبكلمة مختصرة كانت لقاءاتنا أخويّة ننهل فيها من مَعين الرسالات السماويّة بما اشتملت عليه من عِبَر وعظات وأخلاقيّات تقرّب الإنسان من أخيه الإنسان.

لقد ركّز الجميع على ضرورة معرفة كلٍّ منّا الآخَر من خلال الدراسات الجامعيّة والأنشطة الثقافيّة، وزيارة المكتبات الجامعيّة والاستفادة منها، والاطّلاع على المنشورات والأبحاث المشتركة، والمعارض، وتبادل الخبرات بين أعضاء هيئات التدريس، والزيارات الاجتماعيّة والعلميّة، والأعمال المجتمعيّة المشتركة.

ولا شكّ في أنّ مثل هذه الأمور ضروريّة لأنّنا وجدنا جهلًا من الطرفين بالآخر وبمؤسّساته، وأنّ علينا أن نبذل جهدًا متواصلًا لتوسيع آفاق معرفتنا في هذا المجال.

إمتدّت اللقاءات والاجتماعات عامًا كاملًا، وحَصْحَصَ لدى الجميع إحساسٌ مشترك بأنّ ما آلت إليه الأوضاع في لبنان، وخصوصًا بعد حرب شرسة مدمّرة دامت ستّة عشر عامًا، كانت لها آثار كبيرة في التربية والتعليم في هذا البلد، مع إدراكنا ما للتربية والإعلام من دور فعّال ومؤثّر في المجتمع.

فأزمات التربية والإعلام تستوجب الأولويّة في اهتماماتنا، والحاجة

ماسّة في عصرنا الراهن، وفي لبنان بشكل خاصّ، إلى تطبيق ما تحويه الديانتان السماويّتان الإسلاميّة والمسيحيّة من قِيَم، على أنفسنا، وفي مختلف النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة في عصر لا يكاد يُعمَل فيه بالتعاليم السامية المنصوص عليها في كتبنا المقدّسة.

وكان نتيجة هذه اللقاءات والاجتماعات، اتّفاقُ ممثّلي الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة على أن يُعقَد مؤتمرُها الأوّل تحت شعار (القِيَم في التربية والإعلام).

عُقد هذا المؤتمر في بيروت يومَي الأربعاء والخميس ٢، ٣، كانون الأوّل ١٩٩٨م في قاعة اليونسكو، وحاضر فيه مجموعة من رجال الفكر المتخصّصين بالتربية والإعلام ممّن رشّحتهم الكلّيّات والمعاهد، ويعتبر هذا المؤتمرُ الأوّلَ من نوعه في تاريخ لبنان الحديث، الذي يتمّ فيه لقاء الكلّيّات والمعاهد الجامعيّة الدينيّة الإسلاميّة والمسيحيّة.

حرصنا بعد عقد هذا المؤتمر على التطبيق العمليّ للتوصيات والقرارات التي اتّفقنا عليها، فعُقد لقاءٌ طالبيّ بين طلّاب كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة، وطلّاب معهد القدّيس بولس للّاهوت والفلسفة في حريصا، وكان هذا اللقاء نوعيًّا ومميَّزًا.

تضمّن اللقاء جولة في المعهد لتعرُّف معالمه، واجتمع الطلبة في قاعة المحاضرات، وتحاوروا مع مدير المعهد الأب الدكتور جورج خوّام، والأستاذ توفيق حوري رئيس مجلس الأمناء في كلّيّة الإمام الأوزاعيّ، والأب الدكتور جوزيف معلوف، والدكتور محمّد منير سعد الدين، والأب الدكتور بولس صفير عميد كلّيّة اللاّهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس. ثمّ جرى أيضًا حوار بين الطلبة، وتبادلوا العناوين للزيارات والاتّصالات.

لم يقتصر الأمر على اللقاء في معهد القدّيس بولس، بل تلقّى المسؤولون عن الكلّيّات والمعاهد الدعوات للمشاركة في أنشطة جامعة الروح القدس، وكلّيّة الإمام الأوزاعيّ، ومعهد الدراسات الإسلاميّة

المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف، ولتبادُلِ الأساتذة للتدريس. كما أنّنا اجتمعنا في معهد طرابلس الجامعيّ، وقدَّم أساتذةُ مقرّر مقارنة الأديان في كلّيّة الإمام الأوزاعيّ للدراسات الإسلاميّة ومركز الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة البلمند، كيف يدرِّس هذا المقرّر وما هيَ أهدافه.

وكذلك قام طلّاب كلّيّة الإمام الأوزاعيّ بزيارة لمعهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف ومكتبتها. ونحن بصدد لقاءات أُخرى، ونُعدّ لمؤتمر في العام ٢٠٠٠.

هذه نماذج من التعايش والحوار المشترك، علينا أن نسعى إليها لتزداد معرفةً بعضنا لبعض كما نحن في الواقع، ونمدّ جسور التفاهم والألفة بين أبناء الوطن الواحد، وفي العالم أجمع، ونجلو الصورة النمطيّة الذهنيّة المشوَّهة عن بعضنا عند بعضنا الآخر.

ونحن بحاجة، من خلال جامعاتنا، وكلّيّاتنا ومعاهدنا والمجتمع الذي أنشأها، إلى السعي لإقامة مؤسّسات حواريّة إسلاميّة مسيحيّة تتكلّم بلغة مشتركة وطروحات واضحة، وللوقاية من استخدام الدين سلاحًا للصراع بين الأمم، وللحيلولة دون وقوع محاولات الفتنة والفرقة داخل المجتمعات، وللتعاون والحوار الحقيقيّ والتسابق في الحقّ بين المؤسّسات التربويّة الإسلاميّة والمسيحيّة، وللعمل على إسقاط الصورة المزيّفة عن الآخر، وتصحيح الصور الذهنيّة، وتحقيق التعارف والفهم، والتسليم بمبدأ الاختلاف، وأن نتعاون جميعًا على البرّ والتقوى، ومقاومة الفساد والطغيان والهيمنة والظلم الاجتماعيّ، في عالم تستهدف تحدّياتُه المؤمنين في الديانات، ممّا يتطلّب منّا مسلمين ومسيحيّين عملًا مشتركًا لبناء عالم أكثر إنسانيّة، وهذا يلقي على كواهلنا مسؤوليّة كبيرة.

ثمّ لا بدّ من الإشارة في الختام إلى أنّ هناك تحدّيًا مطروحًا علينا جميعًا، وهو مدى التطبيق العمليّ لوعود الحوار، ولنوايا المتحاورين، ممّا يتطلّب جهودًا صبورة ومستمرّة، حتّى يصبح الحوار ضرورة لا يُستغنى عنها.

من منشورات دار المشرق